أثر الأحوال المرئية على النفوس البشرية
دراسة على ضوء السنة النبوية المطهرة

د/ محمد عمر أحمد محمد
أستاذ الحديث المساعد بكلية التربية
جامعة أم درمان الإسلامية

المستخلص

تجدون في هذا البحث الكثير من الفوائد التي تتعلق بأحوال النبي ﷺ والتي قد تخفى إذا ما اقتصر القارئ على مجرد دلالة الألفاظ الحديثية الظاهرة، لذلك كان من الأهمية البالغة لمن يريد فهم السنة النبوية الفهم الأمثل الذي يجنب المسلم الوقوع في الخطأ أو الزلل أن يمعن نظره في ما يصاحب الأقوال وهي الأحوال حتى يتسنى له الحكم على الواقعة كاملة المعالم من غير التباس.

Abstract

many of the benefits will be found in this research that are related to the conditions of the Prophet, Peace Be Upon Him, which may mask if confined to the reader to simplify denote obvious words of Alhdith phrases, so it was extremely important for anyone who wants to understand the Sunnah optimal understanding that avoids acknowledged making mistakes or slippage that Mulls consideration of the accompanying words, a case so that it can judge the whole incident of monuments is confusion.

المقدمة :

الحمد لله رب العالمين، حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى وكما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك، سبحانك لا أحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الحمد في الأولى والآخرة وهو الحكيم الخبير، يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو الرحيم الغفور، وأشهد أن سيدنا ومولانا محمداً عبده ورسوله، وخيرته من خلقه وخليله، وأمينه على وحيه وحجته على عباده، أعلى العالمين منصباً، وأنفسهم نفساً وحسباً، المبعوث بالحق بشيراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، حتى أشرق الوجود برسالته ضياءً وابتهاجاً، فأفضل صلوات الله وأزكى تسليماته عليه ما

ذكره الذاكرون، وغفل عن ذكره الغافلون، وعلى آل بيته الطيبين الأطهار، وعلى صحابته المقربين الأبرار، من المهاجرين والأنصار، والذين اتبعوهم بإحسان إلى يوم القرار، ثم على من التزم العمل بعدهم بقضية هديه العظيم المقدار، الذين تناقلوا الخبر والأخبار، ونوَّروا مناهج الأقطار بأنوار المآثر والآثار، صلاة وسلاماً دائمين متلازمين ما ظهرت بوازغ شموس الأخبار ساطعة من آفاق عبارات من أوتي جوامع الكلم والاختصار.

أما بعد:

فإن الإسلام يرتفع دائماً بجناحين كريمين، جناح القرآن الكريم ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[1] ومجالات الحفظ كثيرة ومتعددة، ولهذا يختار الله الكريم المتعال من عباده من يشاء فيسخرهم لما يريد من حفظ كتابه المجيد قراءةً وتلاوةً وكتابةً وحفظاً ونشراً، والجناح الثاني للإسلام المجيد هو السنة المشرفة والتي رأينا مدى العناية بها في تلك الصور الكثيرة من حفظها عن ظهر قلب، أو في بطون الكتب، والحرص على نقلها مسلسلة من راوٍ إلى آخر، ومن جيل إلى جيل، وذلك لما دلت عليه نصوص القرآن الكريم والسنة على أهمية هذا الجناح الثاني.

ومن هنا كانت السعادة والتوفيق والهدى والرشاد في الاشتغال بعلم الحديث، ومعاناة البحث والتأليف في أي طرف من أطراف فنونه وفروعه وصرف أوقات العمر في مطالعته والعكوف على درسه والاعتناء بحفظه وتدوينه ونقله ونشره، والتفاني في تلقيه وجمعه وروايته وطلبه من مظانه، وكان المشتغل بهذا من الملهمين الذين أدركتهم لواحظ العناية، وامتطوا مركب الهداية، وأتحفهم الله بالخير الوفير الذي لا ينقطع مدى الدهر، فحظه من الإيمان واليقين أكبر الحظ، وعناية الله لا تفارقه لحظة واحدة، ومدده لا يتخلف عنه في حين من الأحيان، لذلك أحببت أن أتشبه بأولئك الكرام، بالمشاركة في خدمة كلام سيد الأنام ﷺ، وهي بغيتي من قديم الأيام وسالف الزمان، فشمرت عن ساعد الجد، وشرعت في الجمع والبحث والكتابة رجاء أن تكون الأوقات المصروفة كفارة لبقية الساعات التي يفنى أكثرها في اكتساب المعاصي والسيئات.

([1]) الحجر: 9

واسترعى انتباهي من ذلك اشتمال عدد غير قليل من الأحاديث النبوية على أحوال نبوية نورانية لها أثر واضح في التربية والإرشاد، فمن الأمور المسلّم بها لدى الإنسان في شتى ضروب العلم وفنونه أن هناك ما يسمى بلسان المقال وآخر يسمى بلسان الحال فهو لا يقل تأثيراً في الآخرين عن لسان المقال ؛ بل ربما كان كثيرا من الأحيان أنفع وأنجع من لسان المقال فقد قيل قديماً : (حال رجل في ألف رجل أنفع من قول ألف رجل في رجل).

يقول العلامة البوطي[1] _ رحمه الله _ في شرح الحكم العطائية: (أما الحال فوضع يتلبس كيان الإنسان جراء ما انتهى إليه باطنه من تزكية النفس وطهارة القلب وتحوله إلى وعاء يفيض بمراقبة الله وتعظيمه والخوف منه والحب له .....، وصاحب هذه الحال ينبعث من عموم وضعه إلى جليسه القريب منه والمقابل له دون حاجة إلى أن يتكلم وينصح ويناقش ، إذ أن هذا السر الذي تنبعث آثاره من باطن الكيان إلى ظاهره يترك في نفس الجليس من النتائج ما لا تستطيع المواعظ الكلامية أن تحققه وما أكثر الأعراب الذين انتقلوا خلال دقائق معدودة من أقصى أودية التيه إلى أعلى درجات الهداية عندما ضمهم مجلس فيه رسول الله ﷺ وصافحت أعينهم قسمات وجهه ، فسار من حاله القلبية مع الله _ عز وجل _ إلى نفوسهم ما أيقظ فيها كوامن الفطرة وألهب فيها مشاعر الحنين إلى الحق وأسقط منها ركام الأهواء والعصبيات)[2].

ونظراً لأهمية تسليط الضوء على هذا الجانب من حياة النبي ﷺ كان جديراً أن يُطرق هذا الموضوع من خلال خمسة مباحث وخاتمة على النحو التالي:

المبحث الأول: التعريف بالحال لغة واصطلاحاً ، وفيه مطلبان.

المبحث الثاني: أثر الأحوال على النفوس عند علماء النفس والتربية.

([1]) الدكتور مُحَمَّد سعيد رمضان البوطي (مواليد عام 1929) في جزيرة بوطان التابعة لتركيا وهو عالم متخصص في العلوم الإسلامية ، تأثر بوالده الشيخ ملا رمضان الذي كان بدوره عالم دين، تلقى التعليم الديني والنظامي بمدارس دمشق ثم انتقل إلى مصر للدراسة في الأزهر الشريف وتحصل على شهادة الدكتوراه من كلية الشريعة، له أكثر من أربعين كتاباً تتناول مختلف القضايا الإسلامية، ويعتبر أهم من يمثل التوجه المحافظ على مذاهب أهل السنة الأربعة وعقيدة أهل السنة وفق منهج الأشاعرة ، مات شهيداً في مسجده في عام 2013م. _ المكتبة الشاملة الموافقة للمطبوع (ما يتعلق بتراجم المؤلفين من خلال كتابه فقه السيرة).

([2]) شرح الحكم العطائية للشيخ البوطي _ 527/1 بتصرف .

المبحث الثالث: نماذج لأثر الأحوال على النفوس في السنة القولية.

المبحث الرابع: مفهوم مصطلح (فقه الحال) عند ابن أبي جمرة.

المبحث الخامس: أقسام الأحوال على النفوس.

وخاتمة تتضمن أبرز النتائج والتوصيات بالإضافة إلى فهرس للمصادر والمراجع، هذا وبالله التوفيق وعليه التكلان ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

التعريف بالحال لغة واصطلاحاً، وفيه مطلبان:

الحـــال لغـــةً:

"الحال" و "الحالة" في اللغة العربية ما عليه الإنسان من خير وشر، ومن ذلك السؤال العادي بين الناس "كيف حالك"؟

وكلمة الحال في لغة العرب تستعمل مذكرة ومؤنثة، فيقال: "هذا حال حسن" [1] أو "هذه حال حسنة" ومن التأنيث قول الشاعر:

إذا أعجبتك الدهر حال من امرئٍ ** فدعه وواكل أمره واللّياليا[2]

في هذا البيت دلالة استعمال كلمة الحال مؤنثة بدليل تأنيث الفعل لها في "أعجبتك"

ومن التذكير قول المتنبي:

لا خيل عندك تُهديها ولا مال ** فليُسعد النُّطق إن لم يُسعد الحال

ومع جواز الأمرين – التأنيث والتذكير – في لفظة الحال، فإن التأنيث هو الأفصح في استعمال اللغة العربية.

وقيل: يطلق الحال في اللغة على الوقت الذي فيه الإنسان، والكثير والأفصح في لفظة التذكير، وفي وصفه وفي ضميره التأنيث[3]

الحـــال اصطـلاحـاً

و"الحال" والأحوال والواردات عند اصطلاح أهل السلوك هي عبارة عن حركة القلب، فالخاطر والوارد والحال محلها واحد وهو القلب، لكن ما دام القلب تخطر فيه

([1]) كتاب النحو المصفى – لمحمد عيد – ص728.

([2]) البيت: لزهير بن أبي سلمى – انظر: خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب 493/8.

([3]) أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك – لابن هشام – 249/2، وكذلك شرح الأشموني على ألفية ابن مالك – على بن محمد الأشموني 3/2.بتصرف.

الخواطر الظلمانية والنورانية سمي ما يخطر فيه خاطراً، وإن انقطعت عنه الخواطر الظلمانية سمي ما يخطر فيه وارداً أو حالاً[1].

قلت: إذن الحال عند أهل السلوك هو ما يخطر على القلب من خواطر نورانية رحمانية.

وهذا الأمر مروي عنه – ﷺ – وعن أصحابه – رضي الله عنهم جميعاً – إذ أنهم كانت تعتريهم أحوال عند سماعهم، من فيض الدموع؛ واقشعرار الجلود لين القلوب، كما قال تعالى: (**اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ**)[2]، (وقرأ ابن مسعود عليه صلى الله عليه وسلم فلما بلغ إلى قوله: (**وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاءِ شَهِيداً**)[3]، قال: حسبك فالتفت إليه فإذا عيناه تذرفان)[4].

وأما الصعق والغشي – وهو من الأحوال عندهم أيضاً – ونحو ذلك فحدث في التابعين لقوة الوارد وضعف المورود عليه؛ والصحابة لقوتهم وكمالهم لم يحدث فيهم بكثرة، فأقدم من علمت هذا عنه الإمام الرباني من أعيان التابعين الكبار الربيع بن خيثم[5] – رضي الله عنه – سمع عبدالله بن مسعود – رضي الله عنه – يقول: (**إِذَا رَأَتْهُم مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظاً وَزَفِيراً**)[6]، فصعق وكان ذلك قبل الظهر فلم يفق إلى الليل، وكذا الإمام القاضي التابعي المتوسط زرارة[7] – رضي الله عنه – قرأ

---

(1) إيقاظ الهمم في شرح الحكم لابن عجيبة الحسيني – 42/1.

(2) سورة الزمر، الآية (23).

(3) سورة النساء، الآية (41).

(4) خرجه البيهقي – شعب الإيمان – باب الخوف من الله تعالى – 219/2 – ح رقم 755 وله شاهد من حديث البخاري 196/6.

(5) الربيع بن خيثم: الثوري أبو زيد الكوفي مخضرم روى عن ابن مسعود، وروى عنه الشعبي؛ قال له ابن مسعود ذات مرةٍ: لو رآك النبي ﷺ لأحبك، توفى سنة 64هـ وكان لا ينام الليل كلهُ رحمه الله تعالى. (خلاصة تهذيب الكمال – صفي الدين الساعدي اليمني – 115/1).

(6) سورة الفرقان، الآية (12).

(7) زرارة: ابن أوفى العامري البصري القاضي روى عن أبي هريرة وعائشة، وعنه قتادة وداود، قال عنه النسائي: ثقة وذكره ابن حبان في الثقات، وكان من العباد، قال أبوحبان القصاب: صلى بنا زرارة الفجر ولما بلغ فإذا نقر في الناقور فذلك يوم عسير شهق شهقة فمات وكان ذلك سنة 93هـ. (تهذيب التهذيب – ابن حجر العسقلاني – 322/3).

في الصلاة فلما بلغ: (فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ)[1]، شهق فمات، وكان هذا (الحال) يحصل كثيراً للإمام علماً وعملاً شيخ الإمام أحمد بن حنبل، يحيى بن القطان[2].

وقال الإمام أحمد: لو دَفَعَ أو لو قدر أحدٌ أن يدفع هذا عن نفسه دفعه يحيى.

وحدث ذلك لغير هؤلاء فمنهم الصادق في حاله ومنهم غير ذلك.

ولعمري إن الصادق منهم عظيم القدر؛ لأنه لولا حضور قلب حيّ وعلم معنى المسموع وقدره، واستشعار معنى مطلوب بتلمح منه، لم يحصل ذلك لكن الحال الأول – حال الصحابة الكرام رضي الله عنهم – أكمل فإنه يحصل لصاحبه ما يحصل لهؤلاء وأعظم مع ثباته وقوة جنانه رضي الله عن الجميع.

لكن كثير من المتأخرين لا يصدق في هذا "الحال، فسبحان علام الغيوب، ونعوذ بالله من كل رياءٍ وسمعة[3].

أثر الأحوال على النفوس عند علماء النفس والتربية.

الأحوال النفسية ونعني بها ما اصطلح عليه علماء السلوك أو المهتمون بالتربية القلبية الموصلة إلى الله تعالى إذ أن هذه الأحوال النفسية هي عبارة عن مشاعر داخلية تمر ولا تستقر، تأتي نتيجة وقوف وتأمل، عند بعض صفات الله تعالى وأسمائه الحسنى، إذ تتأثر النفس بتلك الصفات، مما يدفع صاحبها إلى الأعمال التي تتناسب وذلك التأثير الذي هيمن على نفسه، كما تأتي نتيجة وضع مرّ به الإنسان شرد فيه عن أوامر الله وانغمس في بعض المحرمات، ثم إنجاب عنه ذلك الوضع فأورثه مزيداً من الخوف من عقاب الله، وألماً من تذكر ماضيه في جنب الله عزّ وجل.

---

(1) سورة المدثر، الآية (8).

(2) يحيى بن القطان: وهو يحيى بن سعيد القطان، البصري الإمام من تابعي التابعين، سمع من ابن جريج والثوري وابن عيينة ومالكاً وروى عنه الثوري وأحمد بن حنبل ويحيى بن معين، قال عنه أحمد بن حنبل: ما رأيت مثل يحيى بن القطان في كل أحواله، وقال يحيى بن معين: أقام يحيى القطان عشرين سنة يختم القرآن في كل يوم وليلة ولم يفته الزوال في المسجد؛ أربعين سنة. وما رؤى يطلب جماعة قط؛ يعني ما فاتته فيحتاج إلى طلبها. (تهذيب الأسماء واللغات – النووي–154/2)

(3) الآداب الشرعية والمنح المرعية – لابن مفلح الحنبلي – 319/2 – 320.

ففي الصالحين مثلاً من يغلب عليهم الوقوف عند صفات الرحمة والكرم والإحسان والمغفرة وسعة العفو، وكلها صفات منبثقة من بعض أسماء الله الحسنى، فيتصرف تصرفات دينية ذات طابع جمالي قائمة على أساس راسخ من حسن الظن بالله، وإذا ذكر الناس بالله لم يذكرهم إلا بالكثير من فضله وعطائه وآلائه ومغفرته وعفوه، وإذا اتجه إلى الطاعات والعبادات فبدافع من هذا الشعور يتجه، ويغلب على صاحب هذه الحال أن يكون اجتماعي النزعة وأن ينعكس إليه طيف من هذه الصفات نفسها. فتكون أعماله منبثقة عنها.

وفي الصالحين من يغلب عليهم الوقوف عند صفات القهر والعقاب والسلطة الإلهية الواسعة النافذة، والعقاب الذي توعد به المسرفين والظالمين، فيتصرف تصرفات دينية ذات طابع جلالي قائمة على أساس من تغلب الخوف، والشعور بالتقصير وسوء الحال. لا سيما إن كان ممن له ماض يتصف بالشرود والابتعاد عن أوامر الله والانغماس في الآثام والموبقات. فهذه الأوضاع النفسية تسمى "أحوالاً" إذ هي تعرض لصاحبها فتتلبث لديه ثم تمر وتمضي، ثم قد تعاوده مرة أخرى. وعلى أنه لا يوجد ميقات محدد لبقائها، فقد يطول أمد بقائها وقد يقصر[1].

كان في الصالحين مثلاً من تمرّ به الليالي الكثيرة دون أن تغمض له عين لرقاد كداود الطائي[2]، الذي كان يقول: "إلهي همك عطّل عليّ الهموم الدنيوية وحال بيني وبين الرقاد"[3].

---

(1) شرح الحكم العطائية–محمد سعيد البوطي–1/136–137 .

(2) داود الطائي: هو ابن نصر الطائي أبو سليمان الإمام الرباني كوفي وأصله من خراسان، وعن الفضل بن دكين قال: كنت إذا رأيت داود الطائي لا يشبه القراء عليه قلنسوة سوداء طويلة مما يلبس التجار، وجلس في بيته عشرين سنة أو حتى مات وحضرت جنازته فما رأيتها من كثرة الخلق، مات سنة 165هـ في خلافة المهدي.

الطبقات الكبرى–ابن سعد–6/367، الجواهر المضيئة في طبقات الحنفية–محي الدين الحنفي–1/536.

(3) كتاب الرسالة القشيرية–عبد الملك القشيري–1/54.

وفيهم مثل فضيل بن عياض[1] الذي وقف في عرفة مع الحجيج، دون أن يدعو كما يدعون، أو أن يردد الأذكار والأوراد المأثورة في ذلك الموقف، إذ كانت قد انتابته حالة من تذكر لماضيه يوم كان مسرفاً على نفسه، جعلته نهباً لمشاعر من الخجل من الله عز وجل، حجبته عن الانشغال بالدعاء والأوراد والأذكار.

روى إسحاق بن إبراهيم الطبري أنه وقف مع الفضيل بن عياض بعرفات، فلم يسمع منه دعاء، إلا أنه وضع يده اليمنى على خده، وطأطأ رأسه يبكي خفياً، فلم يزل كذلك حتى أفاض الإمام، فرفع رأسه إلى السماء يقول: وا سوأتاه والله منك، وإن غفرت لي، قالها ثلاثاً[2].

وفيهم من حملته هذه الحال، على الاستغفار مما يعد في الظاهر عبادة وطاعة، مثل سري السقطي [3]، الذي كان يقول: منذ ثلاثين سنة، وأنا استغفر الله من قولي مرة، الحمد لله!... قيل له: كيف ذلك؟ قال: وقع ببغداد حريق، فاستقبلني رجلٌ، فقال لي: لقد نجا حانوتك، فقلت: الحمد لله، فأنا إلى الآن نادم على ما قلت، إذ أردت لنفسي خيراً مما حصل للمسلمين[4].

---

(1) فضيل بن عياض: ابن مسعود بن بشر التميمي اليربوعي أبو علي الزاهد، أحد صلحاء الدنيا وعبادها، ولد بسمرقند ونشأ بأبيور وكتب الحديث بالكوفة وتحول إلى مكة، فسكنها ومات بها، روي عن أبان بن أبي عياش، وعنه: إبراهيم بن أحمد الخزاعي، قال عنه العجلي: كوفي، ثقة، متعبد، رجل صالح، سكن مكة ومات بها سنة 187هـ.
تهذيب الكمال في أسماء الرجال–المزي–281/23.

(2) إحياء علوم الدين– الغزالي– 184/4، عيوب النفس– لأبي عبد الرحمن السلمي– 9/1.
التبصرة –لابن الجوزي– 142/2.

(3) سري السقطي: هو سري بن المغلس، السقطي كنيته، أبو الحسن، يقال إنه خال الجنيد وأستاذه، صحب معروفاً الكرخي، وهو أول من تكلم ببغداد في لسان التوحيد وحقائق الأحوال، وهو إمام البغداديين وشيخهم في وقته، مات سنة 251هـ ببغداد.
طبقات الصوفية– للسلمي–52/1.

(4) الرسالة القشيرية– 46/1

وفيهم من حملته حاله التي ذكرت صوراً ونماذج منها على أن يفطر وهو صائم، مثل معروف الكرخي[1]، الذي مر بسقاء وهو صائم- نافلة-، فسمعه يقول: رحم الله من يشرب مني، فتقدم إليه وشرب من يده، فقيل له ألم تكن صائماً؟ قال: بلى، ولكني رجوت دعاءه[2].

قال الشيخ البوطي: فهذه التصرفات وأمثالها، قد تكون محل نقد، ممن ينظر إلى ظاهر الطاعات والعبادات مفصولة عن الأحوال الداخلية لأصحابها.

فيرى ظواهر الطاعات طاعات في كل الأحوال والظروف، وبالنسبة لسائر الناس، ويرى ظواهر الأعمال والأمور المخالفة انحرافا عن الشرع والجادة الدينية في كل الظروف والأحوال. ولكن هذه النظرة السطحية نظرة خاطئة، بل خطيرة، يجب التنبه إليها والحذر منها. وهذا ما بينه ابن عطاء الله إذ يقول:(تنوعت أجناس الأعمال بقدر تنوع وإرادات الأحوال) [3].

وهذا الذي ذكر إنما يتعلق بأثر الأحوال على النفوس إيجاباً وسلباً من خلال المنظور العلمي العملي النفسي، أما ما يتعلق بالأثر التربوي، فيقول الشيخ البوطي شارحاً للحكمة العطائية الآتية: "تنوعت أجناس الأعمال بقدر تنوع واردات والأحوال" قال: أما الأثر التربوي الذي تحدثه معرفة هذه الحكمة بأبعادها التي فصلت القول فيها- للتوسع والاستزادة راجع شرح البوطي لهذه الحكمة- فهو الالتزام بضوابط الأدب مع عباد الله جميعاً ماداموا مسلمين ... إنك – أيها القاري – بعد أن عرفت هذا الذي ذكرته لك من تنوع الأعمال المقربة إلى الله، وعدم انحصارها في المظاهر العبادية

---

(1) معروف الكرخي: أبو محفوظ، من عباد أهل العراق، وقرائهم ممن له الحكايات الكثيرة في كراماته، واستجابة دعائه، وهو من رفقاء بشر بن الحارث روى عنه أهل العراق، ومات ببغداد وقبره فيها ظاهر يستشفى به ويتبرك بزيارته، وقيل هو الترياق المجرب توفى سنة 200هـ .
الثقات- لابن حبان- 206/9، طبقات الصوفية- للسلمي-80/1، وفيات الأعيان-لابن خلكان-231/5.

(2) المصدر السابق للقشيري-44/1.

(3) شرح الحكم العطائية-للشيخ محمد سعيد البوطي-139/1.

المعروفة والمألوفة، لن تتمكن من إساءة الظن في حق من قد تراهم مقصرين في أداء الصلوات أو غيرها من الأذكار والقراءات، كما أنك لن تسئ الظن في أي من المتبتلين والمتعبدين الذين وردت في ترجماتهم تصرفات ومواقف، قد تراها في بادئ الأمر مخالفة للشرع، أو ترى فيها مبالغة لا وجه لها في باب التورع وحدوده. وقد عرضت لك نماذج وأمثلة منها ... ذلك لأنها نتائج لأحوال نفسية كانت تهيمن عليهم فلا تدع لهم خياراً فيما كانوا يفعلون. وكم رأينا، ونرى أناساً يطيلون ألسنتهم بقالة السوء، في حق هؤلاء الصالحين دون رويّة أو إدراك لهذا الذي يقوله ابن عطاء الله.

وكم رأينا ونرى أناساً ينتشون ويطربون بقالة السوء في حق أناس أقامتهم ظروفهم في أجواء بعيدة عن التنسك والانضباط بآداب الكمالات الدينية المعروفة، دون أن يدركوا أن القربات التي ترضي الله ليست محصورة في هذه الظواهر المحدودة، ودون أن يعلموا أن الوظائف التي أقامهم الله عليها هي أجلّ من تلك الظواهر أثراً وفائدة لهم عند الله إن أخلصوا له في القيام بها على الوجه السليم.

بل حتى الذين قد نراهم مقصرين في الفرائض الأساسية التي عبرنا عنها بـ(الجامع المشترك). يجب أن نذكرهم بها وندعوهم إليها، ولكن لا يجوز أن نسئ الظن بهم، إذ إن انصرافهم إلى وظائفهم الأخرى التي أناطها الله بهم، ستكون على الأغلب جاذباً لهم إلى تدارك ذلك التقصير، كما رأينا من حال الكثيرين من أمثال هؤلاء.

واعلم أن ثمة فرقاً كبيراً بين واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وخطورة ظن السوء، إن الأول لا يستلزم الثاني بحال من الأحوال. أي فواجبنا أن نذكر المقصرين بالفرائض والأركان، وأن نجنح إلى حسن الظن بهم في الوقت ذاته، أي أن نرجح في باب التصورات والافتراضات المستقبلية أن الله سيلهمهم تدارك هذا التقصير، وأنهم سيؤوبون إلى الله عما قريب، بفضل وظائفهم الأخرى التي يؤدونها على النهج السليم الذي يرضي الله عز وجل[1].

(1) شرح الحكم العطائية – محمد سعيد البوطي – 1/147 – 148.

نماذج لأثر الأحوال على النفوس في السنة القولية.

الحديث الأول:

عن أبي موسى، عن النبي ﷺ، قال: "إنما مثل الجليس الصالح، والجليس السوء، كحامل المسك، ونافخ الكير، فحامل المسك: إما أن يحذيك[1]، وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد منه ريحاً طيبة، ونافخ الكير: إما أن يحرق ثيابك، وإما أن تجد ريحاً خبيثة"

تخريج الحديث:

- خرجه البخاري في صحيحه – 72 – كتاب الذبائح والصيد – باب المسك – 96/7 – ح رقم 5534.
- خرجه مسلم في صحيحه – 45 كتاب البر والصلة والآداب – باب استحباب مجالسة الصالحين، ومجانية قرناء السوء – 2026/4 – ح رقم 146 – (2628).
- خرجه الإمام الروياني في مسنده – باب ما روى أبو بردة ابن أبي موسى عن أبيه – 318/1 – ح رقم (474).
- خرجه ابن حبان في صحيحه – 72 كتاب الذبائح والصيد – باب المسك – 96/7 – ح رقم (561).
- خرجه البيهقي في سننه الكبرى – كتاب جماع أبواب السلم – باب المسك طاهر يحل بيعه وشراؤه والسلف فيه – 43/6 – ح رقم (11126).

الحديث الثاني:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "الرجل على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل".

تخريج الحديث:

- خرجه أبو داود في سننه – كتاب الأدب – باب من يؤمر أن يجالس – 204/7 – ح رقم (4833).

([1]) يحذيك أي يعطيك . النهاية : 358/1 .

- خرجه الترمذي في سننه – في أبواب الزهد – 589/4 – ح رقم (2378)، وقال عنه الترمذي حديث حسن غريب.
- خرجه عبد بن حميد في مسنده – من مسند أبي هريرة رضي الله عنه – 418/1 – ح رقم (1431).

بيان درجة إسناد أبي داود:

قال عنه المحقق شعَيب الأرنؤوط : إسناده حسن، فيه موسى بن وردان صدوق.

الحديث الثالث:

عن أبي ذر رضي الله عنه قال: يا رسول الله، الرجل يحب القوم ولا يستطيع أن يعمل كعملهم؟ قال: (أنت يا أبا ذر مع من أحببت) قال فإني أحب الله ورسوله، قال: (فإنك مع من أحببت) قال: فأعادها أبو ذر، فأعادها رسول الله ﷺ.

تخريج الحديث:

- خرجه أبو داود في سننه – في أبواب النوم – باب إخبار الرجل الرجل بمحبته إياه – 445/7، ح رقم (5126)
- خرجه الدارمي في سننه – ومن كتاب النوم – باب إخبار المرء من أحب – 1834/3 – ح رقم (2829) – وقال عنه المحقق (إسناده صحيح).
- خرجه ابن حبان في صحيحه – باب الصحبة والمجالسة – ذكر البيان بأن محبة المرء الصالحين وإن كان مقصراً في اللحوق بأعمالهم يبلغه في الجنة أن يكون معهم – 316/2، ح رقم (556)؛ وقال عنه المحقق إسناد صحيح على شرط مسلم.
- خرجه البخاري في الأدب المفرد – باب الرجل يحب قوماً ولما يلحق بهم – 128/1 – ح رقم (351).

بيان درجة إسناد أبي داود:

وقال عنه المحقق شعَيب الأرنؤوط إسناده صحيح.

الحديث الرابع:

عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (إن من عباد الله لأناساً ما هم بأنبياء، ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة، بمكانهم من الله

تعالى) قالوا: يا رسول الله، تخبرنا من هم، قال: (هم قوم تحابوا بروح الله على غير أرحام بينهم، ولا أموال يتعاطونها، فوالله إنّ وجوههم لنور وإنهم على نور لا يخافون إذا خاف الناس، ولا يحزنون إذا حزن الناس) وقرأ هذه الآية: (**أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ**)[1].

تخريج الحديث:

- خرجه أبو داود في سننه – في كتاب البيوع – باب في الرهن – 387/5 – ح رقم (3527).
- خرجه النسائي في سننه – كتاب التفسير – باب سورة يونس في قوله تعالى: (**أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ**) – 124/10 – ح رقم (11172)؛ من حديث أبي زُرعة عن أبي هريرة ...الخ.
- خرجه البيهقي في شعب الإيمان – باب مقاربة أهل الدين وموادتهم، وإفشاء السلام بينهم 315/11 – ح رقم (8585).

بيان درجة إسناد أبي داود:

وقال عنه المحقق شعَيب الأرنؤوط هذا حديث صحيح؛ وهذا إسناد فيه انقطاع، فإن أبا زرعة بن عمرو بن جرير لم يدرك عمر بن الخطاب رضي الله عنه، لهذا قال البيهقي في شعب الإيمان برقم(8585): أبو زرعة عن عمر مرسلاً.

الحديث الخامس:

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قيل: يا رسول الله أي جلسائنا خير؟ قال: (من ذكركم الله رؤيته وزاد في علمكم منطقه وذكركم في الآخرة عمله).

تخريج الحديث:

- خرجه أبو يعلى في مسنده – أول مسند ابن عباس رضي الله عنهما – 326/4– ح رقم (2437)؛ وحكم عليه المحقق – حسين سليم أسد – بأن في إسناده لين.

---

(1) سورة يونس، الآية (62).

- وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد _ كتاب الزهد – باب نظر الملائكة إلى أهل الطاعة وغيرهم – 226/10 ح رقم (17686).

وقال عنه: وفيه مبارك بن حسان، وقد وثق وبقية رجاله رجال الصحيح.

الحديث السادس:

عن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: (ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار).

تخريج الحديث:

- خرجه البخاري في صحيحه – كتاب الإيمان – باب حلاوة الإيمان – 12/1 – ح رقم 16.
- خرجه مسلم في صحيحه – كتاب الإيمان – باب بيان خصال من اتصف بهن وجد حلاوة الإيمان – 66/1.
- خرجه الترمذي في سننه – أبواب الإيمان – باب باب – 311/4 – ح رقم 2624 وقال عنه "هذا حديث حسن صحيح".

الحديث السابع:

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: (لا تصاحب إلا مؤمناً، ولا يأكل طعامك إلا تقي).

تخريج الحديث:

- خرجه أبو داود في سننه – أول كتاب الأدب – باب من يؤمر أن يجالس – 203/7 – ح رقم 4832
- خرجه الترمذي – أبواب الزهد – باب ما جاء في صحبة المؤمن – 600/4 – ح رقم 2395؛ وقال عنه: هذا حديث حسن إنما نعرفه من هذا الوجه.
- خرجه ابن حبان في صحيحه – باب الصحبة والمجالسة – ذكر الأمر للمرء أن لا يصحب إلا الصالحين، ولا ينفق إلا عليهم– 314/2 – ح رقم 554.

بيان درجة إسناد أبي داود:

وقال عنه المحقق: إسناده حسن؛ من أجل سالم ابن غيلان – فإنه لا بأس به، والوليد بن قيس: صدوق حسن الحديث. والشاك في السند هو: سالم بن غيلان كما جاء مصرحاً به عند الترمذي.

الحديث الثامن:

عن أنس رضي الله عنه أن أعرابياً قال لرسول الله ﷺ: متى الساعة؟ قال رسول الله ﷺ: (ما أعددت لها؟) قال: حب الله ورسوله قال: (أنت مع من أحببت).

تخريج الحديث:

- خرجه البخاري في صحيحه – كتاب الأدب – باب ما جاء في قول الرجل ويلك – 39/8 – ح رقم 6167، 6171، 7153 – بألفاظ متقاربة.
- خرجه مسلم في صحيحه – (واللفظ له) – كتاب البر والصلة والآداب – باب المرء مع من أحب – 2032/4 – ح رقم 2639، 162، أهـ.
- خرجه الإمام أحمد في مسنده – من مسند أنس بن مالك رضي الله عنه – 76/21 – ح رقم 13371؛ وزاد فيه: قال أنس: فما فرحنا بشيء بعد الإسلام، فرحنا بقول النبي ﷺ: (إنك مع من أحببت)، قال: – أي أنس – فأنا أحب رسول الله ﷺ وأبا بكر، وعمر، وأنا أرجو أن أكون معهم لحبي إياهم، وإن كنت لا أعمل بعملهم.

وهذه الزيادة بإسناد صحيح على شرط الشيخين.

مفهوم مصطلح (فقه الحال) عند ابن أبي جمرة[1]

لفظة "فقه الحال" هي لفظة مأثورة وموجودة عند علماء الشريعة المطهرة، ومعنى هذه اللفظة المعتبرة هو: استنباط الحكم الفقهي من واقع الحال، أو الهيئة التي يتلبس بها الشخص المعين؛ مع مراعاة صلاح دينه قبل دنياه وعدم تقديم دنياه على

---

(1) ابن أبي جمرة: وهو عبدالله بن سعد بن سعيد بن أبي جمرة الأزدي الأندلسي أبو محمد: من العلماء بالحديث، مالكي أصله من الأندلس، كان ابن حجر العسقلاني يطلق عليه لقب "المحدث الورع" مات بمصر سنة 695هـ؛ من كتبه "جمع النهاية" و "بهجة النفوس" الأعلام _ الزركلي _ 89/4 .

دينه، لذلك نجد الفقهاء دائماً يطلقون هذه اللفظة ومرادفاتها مثل؛ "فقه الضرورة"، "فقه المرحلة"، "فقه الحاجة" وما كانت هذه المترادفات إلا باعتبار الهيئة التي تلبس بها الشخص ، ولنا في ذلك شاهد قوي في ما جاء في تفسير القرطبي[1] عند تفسير قوله تعالى: (**وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً**)[2]، قال: وفيها أربع مسائل: الأولى – في قوله (ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك) هذا مجاز عبر به عن البخيل الذي لا يقدر من قلبه على إخراج شيء من ماله، فضرب له مثل الغل الذي يمنع من التصرف باليد. وفي صحيح البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: ضرب رسول الله ﷺ مثل البخيل والمتصدق كمثل رجلين عليهما جُبتان من حديه قد اضطرت أيديهما إلى ثديهما وتراقيهما فجعل المتصدق كلما تصدق بصدقة انبسطت – أي انتشرت عنه الجبة – عنه حتى تغشى أنامله وتعفوا أثره – أي أثر مشيه لسيوغها – وجعل البخيل كلما هم بصدقة قلصت – أي انضمت وارتفعت – وأخذت كل حلقة بمكانها. قال أبو هريرة رضي الله عنه: فأنا رأيت رسول الله ﷺ يقول – أي يفعل – بأصبعه هكذا في جيبه فلو رأيت يوسعها ولا تتوسع.

الثانية: قوله تعالى: (وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ) ضرب بسط اليد مثلاً لذهاب المال فإن قبض الكف يعبث ما فيها وبسطها يذهب ما فيها. وهذا كله خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والمراد أمته، وكثيراً ما جاء في القرآن، فإن النبي ﷺ لما كان سيدهم وواسطتهم إلى ربهم عبر به عنهم على عادة العرب في ذلك.

وأيضاً فإنه عليه الصلاة والسلام لم يكن يدخر شيئاً لغدٍ وكان يجوع حتى يشد الحجر على بطنه من الجوع. وكان كثير من الصحابة ينفقون في سبيل الله جميع

---

(1) القرطبي: محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي الأندلسي، أبو عبدالله القرطبي من كبار المفسرين صالح متعبد من أهل قرطبة رحل إلى الشرق واستقر بمنبه ابن حصيب (في شمال أسيوط – بمصر) وتوفى فيها. من كتبه الجامع لأحكام القرآن والتذكرة بأحوال الموتى، وكان ورعاً متعبداً طارحاً للتكلف، يمشي بثوب واحد وعلى رأسه طاقية. (الأعلام – الزركلي – 322/5).

(2) سورة الإسراء، الآية (29).

أموالهم، فلم يعنفهم النبي ﷺ ولم ينكر عليهم لصحة يقينهم وشدة بصائرهم. وإنما نهى الله تعالى عن الإفراط في الإنفاق، وإخراج ما حوته يده من المال من خيف عليه الحسرة على ما خرج من يده، فأما من وثق بموعود الله عز وجل وجزيل ثوابه فيما أنفقه فغير مراد الآية، والله أعلم.

وكل هذا في إنفاق الخير. وأما إنفاق الفساد فقليله وكثيره حرام.

الثالثة: نهت هذه الآية عن استفراغ الوجد – أي اليسار والسعة – فيما يطرأ أولاً من سؤال المؤمنين، لئلا يبقى من يأتي بعد ذلك لا شيء له، أو لئلا يضيع المنفق عياله. ونحوه من كلام الحكمة: (ما رأيت قط سرفاً إلا ومعه حق مضيع).

وهذه الآية من آيات (فقه الحال) – وهو الشاهد في هذا المبحث – فلا يُبين حكمها إلا باعتبار شخص من الناس.

الرابعة: قوله تعالى: (فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا)

قال ابن عرفة: يقول لا تسرف ولا تتلف مالك فتبقى محسوراً منقطعاً عن النفقة والتصرف، كما يكون التغير الحسير، وهو الذي ذهبت قوته فلا انبعاث به، ومنه قوله: (**يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ**)[1]، أي: كليل منقطع. وقال قتادة: أي نادماً على ما سلف منك، فجعله من الحسرة، وفيه بعد، لأن الفاعل من الحسرة حسر وحسران ولا يقال محسور.

والملوم: الذي يلام على إتلاف ماله، أو يلومه من لا يعطيه[2]. هذا، ومن مفهوم (ضبط السرف) وحقيقته معرفة تطبيق ذلك على واقع الحال. فإن مما هو معروف أن الناس متفاوتون في الغنى والفقر وفي طبيعة المتطلبات. فهذا غني وذاك فقير، وبينهما درجات. وهذا يعيش متفرداً بنفسه، وآخر تعيش معه أسرة صغيره، وثالث معه أسرة كبيرة، وهذا ذو جاه ومكانة بين قومه، وآخر ليس كذلك ... وهكذا، يضاف إلى ذلك الأعراف السائدة في كل بلد أو قبيلة فكل ذلك – وما أشبهه – لا بدّ من مراعاته عند الحكم على تصرف الإنسان المالي بأنه إسراف أو تقتير أو وسط بينهما.

---

(1) سورة الملك، الآية (4).

(2) الجامع لأحكام القرءان – لأبي عبدالله القرطبي – 251/10 بنصه.

وعلى هذا فمعرفة الإسراف من عدمه تعود إلى العرف والعادة ، والعادة محكمة كما يقول علماء الفقه وأصوله[1]. لذلك نجد أن الإمام المحدث الورع ابن أبي جمرة قد استخدم هذه اللفظة كثيراً في كتابه "بهجة النفوس" وهو يعني بها ما قد ذكر آنفاً؛ ولكن لا بد لنا في هذا المقام أن نُعْمِلَ هذه اللفظة "فقه الحال" بالتطبيق على كتابه المذكور إذ يقول رحمه الله تعالى: شارحاً لحديث البخاري – عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ قال: (إذا وضع العشاء وأقيمت الصلاة فابدؤا بالعشاء)[2].

قال: ظاهر الحديث يدل على جواز تقديم العشاء إذا وضعت وإن أقيمت الصلاة والكلام عليه من وجوه:

الوجه الأول: هل الأمر هنا على الوجوب أو الندب أو الإباحة أو هو على جهة التوسعة ليتأتى بذلك للمكلف العمل (بفقه الحال) فالذي يكون لحاله أرفع يفعل فالأمر محتمل للجميع لكن الأظهر والله أعلم أن يكون هذا توسعة ليكون المكلف في كل وقت يأخذ بالأصلح له في دينه– وهذا هو فقه الحال أو فقه المرحلة أو فقه الحاجة، أن تأخذ بالأصلح لك في أمر دينك– وإن كان مثلاً وضعت له العشاء وله لها حاجة أكيدة من حيث أن قدم الصلاة عليها كان خاطره فيها أعني في عشائه أو به ضعف يعجز به عن توفية أركان صلاته فإذا تعشى وجد بها قوة على توفية صلاته وهذا ما أشبهه تقديم العشاء في حقه أفضل، وإن كان ممن لا شهوة له في عشائه وقواه مجموعة أو أنه يخاف إن تعشى يلحقه ما يلحق بعض الناس أثر الطعام من الكسل وهذا وشبهه تقديم الصلاة خير له وإن كان ممن الأمر سيان قدم العشاء أو الصلاة لم يظهر له ترجيح بينهما فهنا ينظر لوقت الصلاة فإن كان مغرباً فالأولى تقديمها لأنه الوقت المجمع على فضيلته وإن كانت العشاء فلا يخلو أن يدرك جماعة أخرى أو ليس فإن كان يدرك جماعة أخرى فتقديم العشاء أفضل، لأن تأخير الصلاة وترك الشغل بعدها أفضل وإن كان لا يدرك جماعة أخرى فتقديم الصلاة أولى لأنه من صلاها في جماعة فكأنما قام نصف ليله وكما رجحنا بالنسبة إلى النظر إلى حاله

---

(1) مشكلة السرف في المجتمع المسلم وعلاجها في ضوء الإسلام–عبد الله ابراهيم الطريقي18/1.

(2) خرجه البخاري– كتاب الأذان – باب إذا حضر الطعام وأقيمت الصلاة– 135/1–ح رقم 671.

فكذلك يلزمه الترجيح لنظر الغير وإن كانت عشاء غير ملتزمة مع عشائه لقوله صلى الله عليه وسلم: "كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته[1]"

إلى أن قال الوجه الثاني: فيه دليل على أن وقت المغرب ....إلخ[2].

قلت: وهذا الذي قد بان هو الذي سيعتمد عليه الباحث_ بقدر المستطاع _ في بحثه التحليلي، بالوقوف على دلالات الأحوال النبوية وأثرها في فهم السنة، في سياق هذه الأطروحة المباركة- إن شاء الله- ببركة حديث رسول الله ﷺ

أقسام الأحوال على النفوس.

الأحوال والواردات هي عبارة عن حركة القلب، فالخاطر والوارد والحال محلها واحد وهو القلب، لكن ما دام القلب تخطر فيه الخواطر الظلمانية والنورانية سمي ما يخطر فيه خاطراً، وإن انقطعت عنه الخواطر الظلمانية سمي ما يخطر فيه وارداً أو حالاً، فإضافة أحدهما إلى الآخر إضافة بيانية وكلاهما يتحولان، فإن دام ذلك سمي مقاماً. وقد ذكرت هذا في مطلب استعمال الحال عند أهل السلوك[3].

قلت: ومن هذا يظهر التقسيم والفرق بين الأحوال الحسنة والأحوال القبيحة. لذلك نجد أن الإمام الغزالي رحمه الله قد استطرد في هذا التقسيم حيث قال:(إن أولى الأنوار وأحقها باسم النور هو النور الإلهي، وأن هذا النور متجل بجميع مراتبه في الإنسان،- وأخذ يشرح في هذا الفصل الحجب التي قد تستر هذا النور وتحول دون معرفة الله وحقيقة الوجود، وأدار محور كلامه حول الحديث القائل:(إن لله سبعين حجاباً من نور وظلمة لو كشفها لأحرقت سبحات وجهه كل من أدرك بصره) [4].

وهو يحصر المحجوبين في ثلاثة أنواع:

أ-المجوبين بالظلمة المحضة.

ب-المحجوبين بنور مقرون بالظلمة.

---

(1) البخاري- كتاب الجمعة- باب الجمعة في القرى والمدن5/2-ح رقم 893.

(2) بهجة النفوس وتحليها بمعرفة ما لها وما عليها- لابن أبي جمرة الأندلسي 233/1.

(3) إيقاظ الهمم في شرح الحكم- ابن عجيبة-42/1.

(4) المغني عن حمل الأسفار في الأسفار، في تخريج ما في الإحياء من الأخبار – زين الدين العراقي – 119/1 – برقم 2.

ج–المجوبين بمحض الأنوار.

والظاهر أنه يقصد بالحجاب الظلماني كل ما كان مادياً أو متصلاً بالمادة من طريق ما ، وبالحجاب النوراني كل ما كان عقلياً. ولذلك يدخل تحت المحجوبين بالحجب الظلمانية البحتة الملاحدة والدهرية الذين استولى عليهم سلطان الحس فأنكروا الأديان والبعث. وفسروا وجود العالم على أساس مادي بحت، كما يدخل معهم المحجوبون بنفوسهم الكثيفة الكدرة وشهواتهم وملاذهم مما جعلهم يتخذون الهوى إلهاً من دون الله ويعتبرون اللذة البهيمية ونيل الشهوات الغاية القصوى من الحياة، فإذا ارتفعوا عن هذا الحضيض درجة اعتبروا التسلط والغلبة والاستيلاء، أو ذيوع الصيت واتساع الجاه غايتهم. هذه كلها من الحجب الظلمانية البحتة – وهذا ما عناه الباحث في المبحث بالأحوال القبيحة وهو الشاهد في هذه الدراسة – وأما المحجوبون بالنور المشوب بالظلمة فيدخل فيهم كل من غلب على تفكيره الديني نزعة حسية، أو خيالية تحول بينه وبين رؤية الحقيقة خالصة. ومن هؤلاء عبدة الأوثان. وأما المحجوبون بالأنوار المحضة فمنهم الفلاسفة الذين تحاشوا إطلاق اسم الكلام والسمع والبصر والإرادة على الله على نحو إطلاقها على البشر[1].

ومنهم كذلك من جعل (الهوى) من الأحوال القبيحة، إذ أنه عن الخير صاد، وللعقل مضاد، لأنه ينتج من الأخلاق قبائحها، ويظهر من الأفعال فضائحها، ويجعل ستر المروءة مهتوكاً، ومدخل الشر مسلوكاً. قال ابن عباس رضي الله عنهما: الهوى إله يعبد من دون الله. ثم تلا:(**أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ**)[2]. وقال عكرمة[3] في قوله تعالى: (**وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ**)[4]. يعني الشهوات، (**وَتَرَبَّصْتُمْ**) ، يعني بالتوبة،

---

(1) مشكاة الأنوار – للإمام الغزالي–23/1–24–بتصرف واختصار.

(2) الجاثية:23 –انظر: تفسير الرازي 463/24.

(3) عكرمة: عكرمة القرشي الهاشمي: يكنى أبا عبد الله. مدني، مولى عبد الله بن عباس ومن سكان المدينة، وقد كان سكن مكة. قدم مصر ونزل على عبد الرحمن الجساس الغافقي وصار إلى أفريقية. مات سنة 105هـ وهو ابن 80 سنة. تهذيب الكمال_ المزي _ 264/20 ، وتأريخ ابن يونس المصري _ 149/2 .

(4) سورة الحديد، الآية (14).

(وَارْتَبْتُمْ)، يعني في أمر الله، (وَغَرَّتْكُمُ الأَمَانِيُّ) ، يعني بالتسويف (حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ) ، يعني الموت.وأخيراً (وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ)، يعني الشيطان[1].

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: اقعدوا هذه النفوس عن شهواتها فإنها طلاعة تنزع إلى شر غاية. إن هذا الحق ثقيل مري، وإن الباطل خفيف وبيٌ، وترك الخطيئة خير من معالجة التوبة ورب نظرة زرعت شهوة، وشهوة ساعة أورثت حزناً طويلاً[2].

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: أخاف عليكم اثنين: إتباع الهوى وطول الأمل. فإن اتباع الهوى يصدُ عن الحق وطول الأمل يُنسي الآخرة[3]. وقال الشعبي[4]: إنما سمي الهوى هوىً؛ لأنه يهوي بصاحبه. وقال أعرابي: الهوى هوان ولكن غلط باسمه، فأخذه الشاعر وقال:

إنّ الهوان هو الهوى قُلِبَ اسمهُ ** فإذا هويت فقد لقيت هواناً[5]

وقال بعض الحكماء: العقل صديق مقطوع، والهوى عدو متبوع[6].

"فلما كان الهوى غالباً وإلى سبيل المهالك مورداً جعل العقل عليه رقيباً مجاهداً يلاحظ عثرة غفلته، ويدفع بادرة سطوته ويدفع خِداع حيلته؛ لأن سلطان الهوى قوي، ومدخل مكره خفي. ومن هذين الوجهين يؤتى العاقل حتى تنفذ أحكام الهوى عليه أعني بأحد الوجهين: قوة سلطانه وبالآخر خفاءُ مكره.

---

(1) تفسير القرطبي – 246/17.

(2) كشف الخفاء ومزيل الإلباس – العجلوني – 417/1 – ح رقم 1155.

(3) الزهد لأبي داود – أخبار علي بن أبي طالب وزهده – 116/1 – برقم 106.

(4) الشعبي: عامر بن شراحيل بن عبد ذي كبار، الشعبي الحميري أبو عمرو، من التابعين، يضرب المثل بحفظه، ولد ونشأ ومات فجأة بالكوفة. اتصل بعبد الملك بن مروان فكان نديمه وسميره، ورسوله إلى ملك الروم. وكان ضئيلاً مخيقاً، ولد لسبعة أشهر، وشئل عما بلغ إليه حفظه، فقال: ما كتبت سوداء في بيضاء ولا حدثني رجل بحديث إلا حفظته. وهو من رجال الحديث الثقات، استقضاه عمر بن عبدالعزيز لشدة فقهه، وكان يكتب الشعر. توفى سنة 103هـ. (الأعلام – الزركلي – 251/3.

(5) المجالسة وجواهر العلم – أبوبكر الدينوري – 251/4 – برقم1406 – /1.

(6) لم أقف على هذه الحكمة. ومعناها صحيح.

فأما الوجه الأول: فهو أن يقوى سلطان الهوى بكثرة دواعيه حتى يستولى عليه مغالبة الشهوات فيكل العقل عن دفعها، ويضعف عن منعها، مع وضوح قبحها في العقل المقهور بها، وهذا يكون في الأحداث أكثر وعلى الشباب أغلب؛ لقوة شهواتهم؛ وكثرة دواعي الهوى المتسلط عليهم وإنهم رُبما جعلوا الشباب عذراً لهم، وحسم ذلك أن يستعين بالعقل على النفس النفورة فيشعرها ما في عواقب الهوى من شدة الضرر، وقبح الأثر، وكثرة الإجرام، وتراكم الآثام. فقد قال النبي ﷺ: (حفت الجنة بالمكاره وحفت بالشهوات)[1].

فقد أخبر ﷺ أن الطريق إلى الجنة احتمال المكاره، والطريق إلى النار إتباع الشهوات.

فإذا انقادت النفس للعقل بما قد أشعرت من عواقب الهوى لم يلبث الهوى أن يصير بالعقل مدحوراً، وبالنفس مقهوراً ثم له الحظ الأوفى في ثواب الخالق وثناء المخلوقين قال الله تعالى: (**وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنْ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى**)[2][3].

قلت: فإن حكم الإنسان الشرائع الربانية بعقله؛ أغلق دائرة الهوى على نفسه؛ فصارت النفس صاحبة أحوال حسنة، وإن كان العكس صارت صاحبة أحوال قبيحة، جعلنا الله تعالى من أصحاب الأحوال الحسنة بمنه وفضله.

ولله درُّ على بن أبي طالب رضي الله عنه حيث قال: إياكم وتحكيم الشهوات على أنفسكم فإن عاجلها ذميم وآجلها وخيم، فإن لم ترها تنقاد بالتحذير والإرهاب، فسوفها بالتأميل والارغاب، فإن الرغبة والرهبة إذا اجتمعا على النفس ذلت لهما وانقادت[4].

---

(1) خرجه مسلم – كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها – 2174/4 – ح رقم 2822.

(2) سورة النازعات، الآيتان (40 – 41).

(3) أدب الدنيا والدين – أبو الحسن الماوردي – 29/1.

(4) فصل الخطاب في الزهد والرقائق والآداب – محمد نصر الدين محمد عويضة – 3770/9.

وقد قال ابن السماك[1]: كن لهواك مسوفاً، ولعقلك مسعفاً، وانظر إلى ما تسوء عاقبته فوطِّن نفسك على مجانبته فإن ترك النفس ما تهوى داؤها، فاصبر على الدواء، كما تخاف من الداء[2].

(1) ابن السماك: محمد بن صبيح بن السماك الواعظ، روى عن هشام بن عروة وطبقته، وعنه أحمد وابن نمير وطائفة وهو صدوق، وكان إماماً واعظاً، وعظ الرشيد ذات مرة فغشي عليه من طوله، توفى سنة 183هـ. (ميزان الإعتدال – الذهبي – 584/3).

(2) نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم – عدد من المختصين – 3770/9.

خاتمة

بعد هذه السياحة في رحاب هذا الموضوع المهم وقبل أن نضع عصا التسيار يطيب لنا أن نوضح في عجالة أبرز النتائج والتوصيات التي تمخضت عن هذه الدراسة والتي يمكن إجمالها فيما يلي:

أولاً: النتائج:

1. تبين _ من خلال الدراسة _ أن هناك شيئاً زائداً على المقال يسمى بالحال .
2. اتضح من خلال الحيثيات أن النفس البشرية تميل الى التقليد والإمعة وأنها تتأثر في مقام الاقتداء بالأحوال أكثر من الأقوال .
3. الأحوال لا تتصادم مع الأقوال ، وأن كليهما يكونان معاملة العبد مع الخالق جل وعلا .
4. انقسام الأحوال لركنين ؛ حسنة وقبيحة ، وما يهمنا ما كان على صفة الحسن والجمال .
5. التأكد من أن هناك فوائد لا يتلقاها الإنسان إلا بلسان الحال .
6. مصاحبة أهل الأحوال من أهم المهمات وفيها من الخير والبركات .
7. أهل الأحوال هم أهل السلوك والاتباع والنجاة .
8. التأدب مع أهل الأحوال والمقامات فيه ما فيه من السلامة والحفظ والثبات .
9. السنة النبوية المطهرة لا تُفهم الفهم الأكمل إلا بالوقوف على الدّلالات الخفية للأحاديث النبوية.

ثانياً: التوصيات:

1. أوصي بضرورة طرح المواضيع التي تعنى بدراسة جوانب الفقه الحديثي في كتب السنة المطهرة ، كما أوصي بضرورة تبني مؤسسات علمية خدمة كتب السنة المطهرة تحقيقاً ودراسةً وشرحاً.
2. التوجه نحو إنجاز وإنتاج عمل موسوعي لما تضمنته هذه الكتب من علوم فلا يكفي في استخراج تلك الفوائد أن ننجز بحث ماجستير أو دكتوراه بل يحتاج الأمر إلى دراسات معمقة مستفيضة تستغرق وقتاً أكبر من الذي يستغرقه الطالب لإنهاء رسالته وتتكاثف فيه جهود أوفر، وتحشد لها الأموال والطاقات لتأتي بثمار أينع، وتتم الاستفادة منها بصورة أوضح وأكبر.
3. التوجه نحو العمل المؤسساتي في إنجاز هذه الدراسات الحديثية فبدل أن يقوم باحث بدراسة هذه الكتب، فيبذل فيها وقتاً طويلاً وجهداً كبيراً وربما تملكه اليأس أحياناً، والملل والتعب أحياناً أخرى، يستحسن أن يشترك في عمل واحد من هذا النوع مجموعة من الباحثين المقتدرين تحت رعاية مؤسسة علمية مقتدرة.
4. نحن في حاجة إلى عناية منظمة بكتب السنة المطهرة وتكون من خلال رابطة تنظم جهود الباحثين في أنحاء الأرض وتنسق بينهم، وتكون لها خطة ومنهج وهدف إذ أن هناك بحوثاً كثيرة حول هذه الكتب تحتاج إلى شيء من النظر التطبيقي وهذا يحتاج إلى وقت طويل قد يعجز عنه الباحث الفرد.
5. نشر ثقافة الاهتمام بدراسة وحفظ الكتب المتعلقة بالسنة بين الناشئة من أبناء المسلمين.
6. إنشاء معاهد مختصة بالحديث النبوي الشريف، ومزيد اهتمام من القنوات الفضائية الخاصة بالسنة النبوية أسوة بالقنوات الخاصة بالقرآن الكريم.
7. ضرورة تبني المؤسسات التعليمية والبحثية إخراج طبعات منقحة لكتب السنة بإثبات الراجح من نسخها.

فهرس المصادر والمراجع

أولاً: القرآن الكريم ، مصحف المدينة المنورة ، رواية حفص عن عاصم.

1. إحياء علوم الدين _ المؤلف: أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي (المتوفى: 505هـ) _ الناشر: دار المعرفة – بيروت _ عدد الأجزاء: 4 .
2. شرح وتحليل الحكم العطائية _ للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي _ دار الفكر _ دمشق _ الطبعة الثالثة 1428 هـ_ 2007م _ 4 أجزاء .
3. الطبقات الكبرى _ المؤلف: أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع الهاشمي بالولاء، البصري، البغدادي المعروف بابن سعد (المتوفى: 230هـ) _ تحقيق: محمد عبد القادر عطا _ الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت _ الطبعة: الأولى، 1410 هـ – 1990 م _ عدد الأجزاء: 8 .
4. الرسالة القشيرية _ المؤلف: عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري (المتوفى: 465هـ) _ تحقيق: الإمام الدكتور عبد الحليم محمود، الدكتور محمود بن الشريف _ الناشر: دار المعارف، القاهرة _ عدد الأجزاء: 2 .
5. تهذيب الكمال في أسماء الرجال _ المؤلف: يوسف بن عبد الرحمن بن يوسف، أبو الحجاج، جمال الدين ابن الزكي أبي محمد القضاعي الكلبي الْمِزِّيّ (المتوفى: 742هـ) _ المحقق: د. بشار عواد معروف _ الناشر: مؤسسة الرسالة – بيروت _ الطبعة: الأولى، 1400 – 1980 _ عدد الأجزاء: 35 .
6. الثقات _ المؤلف: محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبدَ، التميمي، أبو حاتم، الدارمي، البُستي (المتوفى: 354هـ) _ طبع بإعانة: وزارة المعارف للحكومة العالية الهندية _ تحت مراقبة: الدكتور محمد عبد المعيد خان مدير دائرة المعارف العثمانية _ الناشر: دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن الهند _ الطبعة: الأولى، 1393 هـ = 1973 _ عدد الأجزاء: 9
7. الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه = صحيح البخاري _ المؤلف: محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي _ الناشر: دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي) _ الطبعة: الأولى، 1422هـ _ عدد الأجزاء: 9 .

8. الجامع لأحكام القرآن = تفسير القرطبي _ المؤلف: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (المتوفى: 671هـ) _ الناشر: دار الكتب المصرية – القاهرة _ الطبعة: الثانية، 1384هـ – 1964 م _ عدد الأجزاء: 20 جزءا (في 10 مجلدات)
9. سنن أبي داود _ المؤلف: أبو داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السِّجِسْتاني (المتوفى: 275هـ) _ الناشر: المكتبة العصرية، صيدا – بيروت _ عدد الأجزاء: 4 .
10. سنن الترمذي _ المؤلف: محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك، الترمذي، أبو عيسى (المتوفى: 279هـ) _ الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي – مصر _ الطبعة: الثانية، 1395 هـ – 1975 م _ عدد الأجزاء: 5 أجزاء .
11. صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان _ المؤلف: محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبدَ، التميمي، أبو حاتم، الدارمي، البُستي (المتوفى: 354هـ) _ المحقق: شعيب الأرنؤوط _ الناشر: مؤسسة الرسالة – بيروت _ الطبعة: الثانية، 1414 – 1993 _ عدد الأجزاء: 18 .
12. طبقات الصوفية _ المؤلف: محمد بن الحسين بن محمد بن موسى بن خالد بن سالم النيسابوري، أبو عبد الرحمن السلمي (المتوفى: 412هـ) _ المحقق: مصطفى عبد القادر عطا _ الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت _ الطبعة: الأولى، 1419هـ 1998م _ عدد الأجزاء: 1 .
13. كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس _ المؤلف: إسماعيل بن محمد العجلوني الجراحي (المتوفى: 1162هـ) _ الناشر: مكتبة القدسي، لصاحبها حسام الدين القدسي – القاهرة _ عام النشر: 1351 هـ.
14. المجالسة وجواهر العلم _ المؤلف / أبو بكر أحمد بن مروان بن محمد الدينوري القاضي المالكي _ دار النشر / دار ابن حزم – لبنان/ بيروت – 1423هـ – 2002م _ عدد الأجزاء / 1 _ الطبعة : الأولى .
15. مسند الإمام أحمد بن حنبل _ المؤلف: أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (المتوفى: 241هـ) _ المحقق: شعيب الأرنؤوط – عادل مرشد، وآخرون _

إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي _ الناشر: مؤسسة الرسالة _ الطبعة: الأولى، 1421 هـ - 2001

16. مسند الروياني _ المؤلف: أبو بكر محمد بن هارون الروياني _ المتوفى: 307 هـ _ الناشر: مؤسسة قرطبة – القاهرة _ الطبعة: الأولى، 1416 هـ - 1995 م _ عدد المجلدات: 3 – الثالث مستدرك وفهارس .

17. المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم _ المؤلف: مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (المتوفى: 261هـ) _ المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي _ الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت _ عدد الأجزاء: 5 .

18. مشكلة السرف في المجتمع المسلم وعلاجها في ضوء الإسلام _ المؤلف: عبد الله بن إبراهيم الطريقي _ الناشر: وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد – المملكة العربية السعودية _ الطبعة: الأولى، 1421هـ _ عدد الأجزاء: 1 .

19. المغني عن حمل الأسفار في الأسفار، في تخريج ما في الإحياء من الأخبار (مطبوع بهامش إحياء علوم الدين) _ المؤلف: أبو الفضل زين الدين عبد الرحيم بن الحسين بن عبد الرحمن بن أبي بكر بن إبراهيم العراقي (المتوفى: 806هـ) _ الناشر: دار ابن حزم، بيروت – لبنان _ الطبعة: الأولى، 1426 هـ - 2005 م ._ عدد الأجزاء: 1 .

20. النهاية في غريب الحديث والأثر _ المؤلف: مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن محمد بن محمد ابن عبد الكريم الشيباني الجزري ابن الأثير (المتوفى: 606هـ) _ الناشر: المكتبة العلمية – بيروت، 1399هـ - 1979م _ تحقيق: طاهر أحمد الزاوى – محمود محمد الطناحي _ عدد الأجزاء: 5 .